الفصل الرابع والعشرون

أوصاف الأحياء والقصور العالية وغير ذلك من البيوت

بناء على ما سلف ذكره، وبناء على ما ذكره الغزالى عن مصر أم الدنيا ففى مصر ٧٤٠ حيًا للمسلمين، وفيها ٧٨ قصرًا لسلاطين السلف، وإن اللسان ليعجز عن وصف كل منها؛ فعلى شط بركة الفيل قصر السلطان قايتباى، وفى قلعة الكبش قصر السلطان جاولى. وأسفله قصر محمد بك، وقبالته قصر نذير أغا وقصر رضوان بك أمير الحج، وقصر يوسف بك أمير الحج الأسبق، وقصر الشيخ السادات، وقصر بيقلى محمد بك، وقصور نوالى محمد بك، وعباس أغا وبلتاجى محمد أغا، ورمضان أغا، وشعبان باشا رئيس المتفرقة، وبكر افندى قائد الانكشارية، وكنعان بك، والشيخ البكرى، وحاجى باشا، واوزبك بك، ومسعود أغا، وعلاوة على هذه القصور ٣٢٠٠٠ بيت للمسلمين. أما القبط فلهم ٢٠ حارة و ٦٠٠ منزل وعددهم ٩٠٠٠ قبطى يدفعون الخراج ويحصله أمين البحرين.

واثنتان وعشرون جماعة يهودية تشكل حارة واحدة، وشوارع اليهود ضيقة مما يجعل من المتعذر مرور جمل منها أو فرس، وهم يهود معتزلون وبيوتهم من خمسة أو ستة طوابق، وعلى بعد خمسين قدمًا من حارة اليهود أبواب عليها حراسة وجملة أسواق اليهود فى حارتهم ولا حاجة بهم إلى مكان آخر، وتقوم فرقة من الانكشارية بمراقبة اليهود فى حارتهم على الدوام. وعدد اليهود ٦٠٦٠ نسمة يدفعون الخراج.

وهناك أربع حارات للأروام وحارتان للأرمن ومجموع سكان الروم والأرمن ٣٠٠٠ نسمة يدفعون الخراج. والنصارى من التابعين لبلدان أوربا أو الدولة العثمانية فيتراوح بين ٦٠٠٠ ـ ٧٠٠٠ نسمة، ولا وجود لغجر الأروام. أما جميع أهل مصر فهم قوم فرعون، وعلى حافة البركة حارة لنصارى أوربا، وفيها مراكز لقناصل سبع دول أوربية بها ٣٠٠٠ من نصارى أوربا ولا يؤدى واحد منهم حبة قمح من الخراج.

وجملة القول أن هناك اثنتان وسبعون ملة، ومائة وأربعون لغة تدور على الألسنة وإضافة إلى وجود عشرين ملة للنصارى فى مدينة مصر فإن هناك أجناس أخر كثيرة مثل المغرب، والأندلس، وافنو، ودونقلا، والبربر، والفونج، وقرمانقة، وبغه نسكى،

والحبشة وماى بـورن، والنوبة ولغات هذه الأجنـاس منطوقة وليست مـكتوبة. وسوف أكتب بإذن الله عن جميع أجناس الناس وأحوالهم فى مصر فى حينه.

باب زويلة

فى عام ٤٨١ عندما وَزَّر حسين القائد مجدد عمائر مصر ابن المعز لدين الله الفاطمى بعد أميـر الجيوش أبو النجم بـدر الجمالى وزير المستنـصر بالله العباسى، انـهدم الجانب الجنوبى للقـلعة التى أقامها جوهر القائـد؛ فألحق بها قلعة ركينة، وبـقيت تلك الأسوار مطمورة فى الرمال ناحية قايتباى. وباب زويلة من بناء أمير الجيوش بدر الجمالى سالف الذكر فى ذلك العصر وإلى كتابتى هذا التـاريخ كان قد مر عليه إحدى وخمسون سنة، ولم أر فى سياحاتى بابًا متقن الصنع مثله.

وعندما كان أمير الجيوش يبنى هذا الباب كتب طـلسمًا عظيمًا فلم يصنع له مصاريع قط، وكان يبقى على الدوام مفتوحًا. ومـن الحجر الأسود الموجود فى عتبته إذا ما دخل مدينة مصر أحد ماشيًا أو راكبًا للسرقة أو القتل أو الثورة بحكم هذا الطلسم ذلت حوافر فرسـه وسقط علـى عرفه وهـلك وإلا خرج جـواده من الباب وهـو حرن ولذلـك لم يحتـمـل دخـول لـص أو باغ ولا ثائر وعلاوة عـلى ذلك الطلـسم فإن موسى ـ عـليه السلام ـ التقى بالخـضر فى هذا الموضع المطلسم. والآن هو مزار يسمـى «قرقلر مقامى» أى مزار الأربعين. وحتى عهد خلافة الملك الكامـل ناصر الدين محمد كان طلسم باب زويلة نافذ الأثر، وذات يوم أراد الملك الكامل أن يقهر المجرمين فى الجامع الأزهر داخل القاهرة وبينما كان يدخل من باب زويلة حرن فرسه ولما حثه سقط على عرفه وسقط فى الرمال فدخله شديد الغضب، فأمر بإراقة دماء مائة كبش على عتبة باب زويلة، وبذلك أفسد الطلسم ونزع الحجر الأسود من عتبته وجعل للباب مصراعين وأصبح يفتح ويغلق مثل سائر الأبواب، وهو الآن ذو مصراعين من حديد.

وفى المرة الثالثة عام ٥٦٦ بنى السلطان يوسف صـلاح الدين القلعة الداخلية والقلعة العليا، وفى عام ٥٦٦ كـان بهاء الدين قره مونلى الأسدى أميرًا طواشيًـا عظيمًا وخشى سلاطين دمشق فوسع للمرة الرابعة بناء القلعة حتى بلغت ٣٩٣٠٠٠ ذراعًا هاشميًا.

* * *